



التيار الثوري في الشعر العربي الحديث

بقلم شوقي خميس

الاشتراكية والتفوق الصناعي والعلمي وسيطرة التكنيك والتنظيمات واجهزة الدعاية على حياة الفرد بشكل متزايد تزايدا رهيبا ، ونحن نعيش في عصر المفارقة الحادة بين انظمة شديدة التخلف تصارع مع انظمة اخرى متقدمة ، ونحن نعيش في عصر المفارقة الحادة بين الحياة في الريف والحياة في المدن الكبيرة ، ونحن نعيش في العصر الذي ادت به كل العوامل السالفة وتطور وسائل الاتصال الى وحدة عالمية من المستحيل ان نكتفي بظهورها كمجرد زخرفة في اطار التجربة الشعرية ، وانما يلزم ان تظهر كمنصر مؤثر لا غناء عنه . ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ هذه هي مشكلة شعرائنا المعاصرين .

منذ حوالي عشرين عاما اخذت حركة جديدة تتميز في شعرنا الحديث مرتبطة باسماء عبد الوهاب البياتي وبدر شاكر السياب ونازك الملائكة وصلاح عبد الصبور ونزار قباني والشرقاوي وبلند الحيدري وخليل حاوي وادونيس . فقد اشتركوا جميعا في خلق وسائل جديدة تعبيرية في الشعر واشتركوا ايضا في وضع مفهوم جمالي عصري جديد والصراع من اجل احلاله محل المفاهيم الجمالية السابقة في الشعر واشتركوا ايضا في نزعتهن الواقعية وفي توسيع مفهوم التراث القومي باتجاههم نحو التراث الشعبي والفولكلوري ، واشتركوا كذلك في تأثرهم على مستوى التفاعل لا التقليد بالتراث الانساني العالمي والمعاصر ، ولكنهم كانوا في ذلك على درجات متباينة تبينا كبيرا ، وكانت بداية كل منهم تحمل بذور مستقبله ، وسرعان ما تفرقت بهم الطرق حتى انهم يمثلون الان اتجاهات ليست مختلفة فيما بينها فحسب بل ومتعادبة احيانا ، ولكن خلال العشرين سنة الماضية ومع هؤلاء الشعراء وفي اعقابهم دخل شعراء اخرون الى الميدان ليعطوا البداية ثقلها وليؤكدوا الطريق ويزيدوه خصيا وليعطونا الامل في مستقبل افضل للشعر .

وإذا نظرنا الان الى عالمنا الشعري في صورته العامة التي تلخص عشرين سنة من التجربة الحادة الخصبية يمكننا التمييز بين جنانين متصارعين ومتعاديين على احدهما يقف شعراؤنا الملتزمون وعلى الآخر يقف الشعراء المعادون للالتزام .

فسواء استمد الشاعر مادة قصائده من التاريخ او الاسطورة او استمدها من واقع الحياة فانه يواجه بعملية اختيار تتحدد خلالها وجهة نظره فيما هو جوهرى وما هو ثانوي في التجربة التاريخية او الاسطورية او الواقعية وتتحدد بهذا الاختيار وجهة نظره في الحياة والانسان بصرف النظر عن اتجاهه الاجتماعي والسياسي . وبتقييمنا لنظرة الشاعر وموقفه من الحياة والانسان نحدد مضمون التزامه وطبيعته ، وإذا كان من البديهي ان الشعراء الذين يعبرون باشعارهم عن معتقد معاد للحياة باسم الصب أو الفشل أو اللامعقول أو الكارثة . انما يقفون موقفا معاديا للالتزام لأن وجهة نظرهم لا تتضمن أي عناصر ايجابية مخصصة للحياة ، فانه من البديهي أيضا ان الشعراء الذين يقفون بجانب الانسان في قضايا تحرره القومي والسياسي وفي محاولته لتخطي اغترابه امام عالم تفوق فيه التطور المادي على وعي الانسان فهؤلاء هم الملتزمون . وهم الذين يمثلون التيار الثوري في شعرنا العربي الحديث ، هذا مع ملاحظة ان التزام الشعراء انما يعبر عن

في الوقت الذي تتعالى فيه اصوات كثير من شعرائنا معلنة عبث الحياة والامعقوليتها ، نادبة براءة الامس المفقودة ، نائمة في دروب اللاوعي الخفية ، منذرة بكارثة شاملة ، وفي الوقت الذي يتحول فيه عدد من شعرائنا الوافعين من الرؤية الاجتماعية للواقع الى الرؤية الميتافيزيقية ، تتزايد مسؤولية النقاد نحو تمييز الصوت الثوري في شعرنا ، حتى لا يتعرض للتردد والضعف تحت ضغط هذه الاصوات الغريبة . ولا تتعلق هذه المسؤولية بجانب الوظيفة الاجتماعية للفن فحسب ، وانما تتعلق اولا وقبل كل شيء بعناصر ازدهار الشعر في واقعنا العربي ، وتضاعف قدرته على التعبير عن مشاكل الانسان العربي على المستويين الوجودي والاجتماعي .

ولا نظن انه من الافضل ان نبدأ في هذا الصدد بوضع تعريف للثورية في الفن حيث لا تعتبر القواعد العامة الا في تحديد ما هو عام ، ونحن نريد النفاذ الى واقع المشكلة الخاص ، فاذا قلنا بان الفن الثوري هو الذي يزيد من ادراكنا بالواقع المحيط بنا مما يجعل منه عنصرا من عناصر التغيير فان السياسة والعلم . الخ . تهدف ايضا الى تحقيق هذا الفرض نفسه وهو انماء معرفتنا بالواقع وقدرتنا على تغييره الى الافضل ، وبذلك لا تكون قد اقتربنا كثيرا بهذا التعريف من الصفات النوعية للفن التي تميزه عن غيره من الظواهر الاجتماعية الاخرى .

نحن لا نريد تحديدا ثوريا مطلقا في الفن ، وانما نريد تحديد الثوري في الفن منسوبا الى واقع انساني محدد . ومن البديهي ان أي اتجاه ثوري يواجه صعوبات تختلف باختلاف الواقع الذي ينبع منه ويعبر عنه . ولا شك ان واقعنا الحديث قد وصل الى درجة من التعقد لم يكن لها مثيل تزيد من صعوبة عرضه عرضا ملائما .

ولكننا نود ان نؤكد ان واقعنا العربي له سيماته الخاصة . لقد كانت آلام المخاض والولادة الجديدة هي التي تتناوب في الوقت الذي انتاب العرب وفقدان الامل اوربا الرأسمالية ، حتى لتنعكس حشجة حضارة محتضرة في صوت كثير من شعرائها المعاصرين . وكان الحنين في بلادنا الى ماض عاطفي فروسي يؤكد حينئذ الى المستقبل ، بينما الحنين ، الى الماضي المتردد في قصائد الشعراء الاوروبيين كان هروبا من تفاهة الحاضر وتفسخ قيمه وبلادته . وبينما كانت الحركة خلال صعوبات الواقع هي التي تتمثل فيها مشاكل الوجود العربي من نواحيها المأساوية والبطولية ، كانت محاولة تجميد الواقع «في انتظار الجود» هي اخر حل يائس امام تصدع الوجود البورجوازي في اوربا .

اذن فالتجربة العربية لها صفاتها الخاصة التي تميزها عن تجارب الامم الاخرى ويجب الا تخلو نقاط انطلاق التجارب الشعرية العربية المعاصرة من تأثير هذه الصفات ، والا كان معنى ذلك اصطناع التجربة وتلفيقها واستيراد مشاكل غريبة للتعبير بها عن محنة الانسان العربي او بطولاته . الخ .

ولكننا في الوقت نفسه لا نريد بل ولا يمكننا ان ننعزل عن مشاكل العصر الذي نعيش فيه بعد ان ترابطت المصائر الى ابعد حد بين الناس الذين يعيشون على الكرة الارضية . نحن نعيش في عصر الطاقة الذرية والصراع الحاد بين الازمة السياسية المختلفة وصعود

درجات مختلفة من الرؤية ويمثل مستويات تعدد بتعدد مضمون الالتزام ، وكذلك فان الشعراء المعادين للالتزام انما يصعدون في اتجاهاتهم عن زوايا مختلفة في النظر الى الحياة والحكم عليها . وويل ان ندخل في تفصيل هذه الاتجاهات وتلك حتى يتضح التيار الثوري بسمياته الخاصة في شعرنا العربي الحديث ومن خلال ابراز التيارات الاخرى المتصارعة معه ، ينبغي ان نسجل عدة نقاط عامة تتبع مسن الظروف الموضوعية بحركة الشعر في بلادنا .

أولا : الرؤية الحديثة ووسائل الخلاص

لقد حدثت تغيرات بالغة الضخامة في واقعنا العربي في العشرين سنة الاخيرة على المستويين الاجتماعي والسياسي ، مما كان لا بد وان ينعكس على نحو ما على الحركة الفكرية والفنية في بلادنا ، كذلك فان ظروف القرن العشرين ادت الى تغيرات عميقة ومتلاحقة في علاقة الانسان بالانسان والمجتمع والطبيعة نتيجة للتقدم الذي أحرزه العصر من ناحية ولما أتى به وراه من قوى تدميرية قادرة على افئائه من ناحية أخرى .

موجز القول ان الحياة بكافة اشكالها تتغير وتتسم بسرعة لم يسبق لها مثيل في حركة التغير ، وكان لا بد وان ينعكس هذا الواقع على الفن متمثلا في مشاكل جديدة تحيط بالوجود الانساني ورؤية جديدة تعبر عن هذا الوجود . ونظرا لترايب المشاكل الانسانية في عصرنا من ناحية ولتاثيرها المتبادل من ناحية اخرى لا يصح ان نستغرب تشابه الحلول التي تبناها شعراء شديدي الاختلاف والتباين في موقفهم الاجتماعي . فبينما تسحق الحرية الفردية امام ضراوة التنظيمات واجهزة الدعاية الرهيبة في المجتمع البورجوازي الذي اقام بناءه الفكري والعقائدي على اساس من هذه الحرية ، وبينما تتجه المجتمعات الاشتراكية الان نحو التوسع المتزايد في مضمون الحرية الفردية وهي المجتمعات التي اقامت بناءها الفكري والعقائدي على اساس الحياة الجماعية والفعل الجماعي ، وبينما يخرج علينا الواقع بين حين واخر - خاصة في السنوات الاخيرة - بتطبيقات جديدة اجتماعية لم تكن من الممكن التنبؤ بها من قبل ، يحاول الفن هنا وهناك ان يحمل رسالة التوحيد بين البشر ويأمل ان يقوم بوظيفة الدين ويحاول الفن كذلك ان يعيد تقييم حضارتنا بمقارنتها بالحضارات الكبرى السابقة ويحاول الفن ان يستثير يتابع البهجة والحيوية الاصيلية في الانسان والمستهلكة في ممارسة لنفاهة الحياة العادية المعاصرة . ويحاول الفن ان يرتبط بالاسطورة وان يلجأ الى الحلم لتحقيق التوازن في الوجدان الحديث الذي يهدده الانقراض . ويحاول الفن ان يكشف الطوايق المؤدية لتحقيق الانصال بين الانسان والطبيعة في صورتها الجديدة القريبة ، ويحاول الفن ان يستمد من التراث الشعبي والبدائي اصواتا تؤكد ضرورته واصالته . وينظر الى هذه الوسائل كالدين والتاريخ والاسطورة والحلم والطبيعة المعاصرة والتراث الشعبي والبدائي كوسائل خلاص للانسان الحديث يتخطى بها اغترابه عن نفسه في معركة الحياة اليومية الحديثة واغترابه عن عالمنا المعقد الحديث . ولكن هذه النظرة يشوبها الكثير من الخطأ فبينما قد يستند التمسك بروح الدين وتقضي وسائطه لاعادة تحقيق مفهوم موحد بين الناس جميعا عن الوجود والحياة والموت على اكبر درجة من التفاؤل . قد تستغل الروح الدينية ايضا مركزة على جانب التحقير من شأن الحياة والانسان او لتجسيد الفارقة بين عالم مضى سادته السلام والطمأنينة ! وبين عالم اليوم الذي يمزقه القلق والرعب ، كذلك فان حضارة الانسان الماضية واداطيره وتراثه الشعبي قد تتعرض للتشويه على ايدي الشعراء الرجعيين ، وقد تستخدم لتأكيد عمق النضال الانساني وعظمتها على ايدي الشعراء التقدميين ، والمسألة كلها متوقفة على كيفية الاستفادة من هذه الوسائل التي تحتوي على ينابيع ثرية حقا لا يمكن ان تنكر فائدتها في تدعيم رسائل الفن الحديث من اجل الادراك المتزايد للواقع . لذلك فانه اذا كانت رغبتنا في تحقيق نهضة الفن توجب علينا الاعتراف بهذه

الوسائل والحلول الحديثة فانه يجب علينا في الوقت نفسه التنبيه الى كيفية استغلال هذه الحلول ، كما تتبلور في اعمال كل شاعر حتى يمكننا رصد اتجاهه الصحيح .

ثانياً : وسائل عرض التجربة الشعرية الحديثة

ان تسليماً باختلاف الرؤية الحديثة للواقع كما تنعكس في اعمال شعرائنا المعاصرين عنها في اعمال الشعراء السابقين يستلزم منا اعترافنا اخر بوسائل شعراء القرن العشرين المستحدثة ، فمن الطبيعي ان الرؤية الجديدة انما تحتوي بمجرد وجودها غالباً على الاشكال الجديدة ، وهذا الموضوع لا يثير كثيراً من المشاكل فيما يتعلق بشعرنا العربي الحديث الذي ما زال في بدايته متفتحا لاستقبال الكثير من المفاهيم والاساليب الشعرية ، وحيث انه في عمره القصير لم يصل بنا بعد الى مستوى تحديد مصطلح شعري متفق عليه بين الشعراء والقراء والناقد ، ولكن هذا الوضع الذي رفع معظم القيود الشكلية عن الشاعر وبيح لحرية القدرة على التحقيق بأقصى درجاتها تجاه واقع طال به الظلم حتى ليترشب احيانا وبدون وعي منه كل ما يقدم اليه . هذا الوضع يفتح الباب لدخول اشكال جديدة مفرغة مسن المضمون او نجارب لا تعكس الا الشكل الخارجي للواقع والمأساة او البطولة ، دون الامسك او محاولة الامسك بالجنور التولد عنها هذا الشيء او ذاك ، لذلك ومع حرصنا على تأكيد حرية الشاعر العربي في ابداع الشكل الملائم لتجربته ، يجب علينا ان ننبه الى عدم الغفلة في تفسير بعض الاشكال الجديدة ، التي قد لا تعني شيئاً اطلاقاً ، او قد لا تعني سوى الرغبة في اللعب او التقليد او الابهار المؤقت .

ثالثاً : الشاعر العظيم

المخالفة فان الشعر المعادي لا يمكن ان يكون مفيداً في تقدم الحياة ، هناك من يدعون ان الشعر العظيم لا بد وان يكون تقديمياً وبمفهوم ولكن هذه القضية محل نظر ، فنحن قد نتفق على ان قصائد ت.س. البيوت قصائد عظيمة ولكنها في الوقت نفسه قصائد معادية للتقدم ، فهو حين يبكي البراءة المفقودة المرتبطة بعالم اللاهوت مستقلاً فترات خاصة من تاريخ المسيحية ، انما يزيغ حقائق التاريخ حين يخفي مدى القهر الذي كان يسحق الانسان البسيط في هذه الفترات فيما وراء احلام البراءة المزعومة التي لم تكن عيناه الكليتان بقادرتين على مجرد تخيلها ، ولكن ما يعطي شعر البيوت صفة العظمة انه يتحد في صفتين اولاهما تتعلق بقدرته الخارقة على البناء المؤثر وثانيهما تتعلق بحقيقة واقعية هي اصابته في أسر عوامل ادائه للعالم البورجوازي الحديث على نحو جزئي . وعليه فانه يمكننا الاستفادة من اعمال شاعر رجعي عظيم مثل البيوت ولكن بشرط ان تكون متيقظين لما تتضمنه هـــذـه الاعمال من قدرة هائلة على اصطناع حلم خلاص زائف حتى لا ننساق معه في النهاية الى رفض حضارتنا الحديثة رفضاً كلياً ونقف بذلك في وجه التقدم الانساني .

ولا تقتصر المشاكل والصعوبات التي يتعرض لها التيار الثوري في شعرنا العربي الحديث على ما اسلفنا من مشاكل تعقد الواقع الحديث وتداخل الحلول والميل الى الاسراف في اصفاء مفاهيم متعسفة على النزعات الشكلية المعاصرة او النظرة الاحادية الجانب الى اعمال كبار الشعراء المعاصرين ، وانما هناك تيار قوي في شعرنا العربي يشمل ما يمكن ان نسميه شعراء الرؤية الميتافيزيقية وشعراء الرفض الوجودي وشعراء الفن للفن .

هذا التيار يقف في الجانب المعادي للحضارة والتقدم الانساني وباسم حرية الفن يرفض اصحابه كل انواع الالتزام بكافة مستوياته السياسية والقومية والانسانية العامة والوجودية المتفاوتة . ولا بد لنا من مناقشة هذا التيار حتى تتضح ضرورة التيار الثوري المتصارع معه تيار الشعراء الملزمين كحل وحيد نستطيع من خلاله الوقوف بجانب الانسان المعاصر والتعبير عن مشكلاته الحقيقية والنهوض بوعيه حتى يستطيع الوقوف على مستوى عاله .

— التتمة على الصفحة ١٨٣ —

النيار الثوري

— تنمة المنشور على الصفحة ٢٧ —

شعراء الروية الميتافيزيقية :

ها انت ترى الدنيا من قمة وجدك

((لا تبصر الا الانقاص السوداء)) — صلاح عبد الصبور .

((بيني وبين الباب

صحراء من الورق العتيق وخلفها

واد من الورق العتيق وخلفها

ممر من الورق العتيق)) — خليل حاوي

((هل انا وحش الحقيقة في هذه الخرائب حولي ؟)) ادونيس

غالبا ما يخطئ الشعراء الطريق في بحثهم المتجسس عن اسرار

الخلود فيجولون النظر عن تجارب الحياة الى تجارب اخرى من صنع

الوهم حتى ليفودهم الظن الى ان المعاني المطلقة انما تعيش بين خرائب

الوهم والاطلال .

انهم لا يريدون الوقوف عند حدود تجارب جزئية محكوم عليها

منذ البداية بالحقية ويحشوه عن الشمول ، ولكنهم يفقدون نقاط

البداية الحقيقية عندما يتخلون عن الواقع ليتخذوا نقاط بداياتهم

من نتائج تجارب اخرى في الفن كتب لها الخلود نظرا لدلالاتها على

مرحلة من مراحل النضال الانساني من اجل مزيد من الفهم كالتجربة

الصوفية ، وهي تجربة ان لم تكرر فافدة الدلالة على واقعنا المعاصر

فانهم لم يفلحوا في كشف طريق يصل بينها وبين الحاضر ، بل انهم

جميعا سواء في ذلك صلاح عبد الصبور او خليل حاوي او ادونيس

قد افتعلوا تجربة العذاب الانساني وافتقرت فصائدهم الشديدة

الذاتية في مظهرها الى العنصر الوحيد الذي يعطي الشعر الذاتي

فيمنته وهو الصدق ، فصالح عبد الصبور تكاد تخفق شاعريته كثرة

الادعاءات والمواقف المريضة والسهولة التي تستسلم بها قوى الانسان

التردد صوته في اعماله ، حتى يفسر الاثر التراجمي المقصود توصله

اليأس .

ان فصائد صلاح عبد الصبور سواء في اناشيد قراره او في

اغنياته التائهة تخلو تماما من عنصر الصراع وباستثناء قصيدتي

((حكاية قديمة)) و ((لوركا)) فانها تحتشد بصراخات يلقب عليها

عنصر التدبير لا الانفعال ، اما فصائده تحت عنوان ((صحائف من

مذاكرات مهملة)) فليست اكثر من محاولة فاشلة لاضفاء ثوب عصري

على افكار ميتافيزيقية عتيقة ، فهو لا يضيف شيئا ذا قيمة الى الفكر

الانساني عندما يضع تجارب الحكم على الانسان والحياة او عندما

يرتدي ثياب النبوة في ديوانه قبل الاخير ((اقول لكم)) ، والذي

يقلل من أهمية تجربة صلاح عبد الصبور منذ قفزته من ميدان الواقعية

الى ميدان الميتافيزيقيا في ديوانيه الاخيرين ان تجربته فسي هذين

الديوانين تفصل انفصالا حادا عن الحياة المعاصرة ، في حين ان

الشعراء الميتافيزيقيين الكبار مثل ايزراياند و ت.س. اليوت اللذين

تأثر بهم صلاح عبد الصبور وشعراؤنا الميتافيزيقيين الآخرون قد

الشعراء الميتافيزيقيين الكبار مثل ايزرا باوند و ت.س. اليوت اللذين

الحديثه ، كواجهة تتضمن فدرا من الاقتناع لما يخفونه وراءها من احكام

مطلقة غير مقنعة .

ومع ذلك فنحن لا ننكر ما يتردد — وان كان ذلك نادرا — في ثابا

فصائد صلاح من لمحات صورية خاطفة بالغة الرهافة والذكاء تذكرنا

ببدايته الواقعية الانسانية التي عقدنا عليها اكر الامل في شعسر

عظيم .

ولعل صلاح عبد الصبور متواضع في ادعاءاته اذا قارناها بادعاءات

ادونيس الذي يصطنع ((الزامير)) ويتزيا بثوب نصفه لنبي ونصفه

لساحر ، ويرفض الوجود الاجتماعي رفضا كاملا ليصنع من احجار

امس بائد مدينة فاصلة ، ويزعم انه امتزج بالشجر والاحجار والنار

والماء ، انه في الحقيقة لا يجيد الحديث الا عن نفسه بطريقة غامضة
احيانا ، ولكن غموضه لا ينشأ من تعقد التجربة وانما ينشأ من النواء
المفقد ، وبطريقة وفحة بصراحة احيانا اخرى كما يفعل حين يضع
مزامير الحكمة في مقدمات فصائده وهي ليست سوى تداع عاطفي
لا يتمتع بشيء من الصلابة ولا يفيد في اجماله عبر الرغبة المجنونة
في بعث عالم ميت على حساب الحياة والانسان على ارضنا العريية ،
وليست البشرى الدينية التي أعلنها من قبل ادونيس سوى الاطار
العاطفي الميتافيزيقي لدعوة استعمارية مخربة .

ولكنه بعد ديوانه ((كتاب التحولات والهجرة في اقاليم النهار
والليل)) الذي حاول فيه ان يرتبط بالافكار التي فرضت سيادتها
على الارض العربية بطريقته الخاصة ويضفي على تجربته مضمونا
اجتماعيا معاصرا ، يجد من يدافعون عنه باسم التحول ولكنه في الحقيقة
لم يفلح في ان يعطي شعره أي قدر من الموضوعية حتى في مناجاته
لـ ((دمشق)) حين يضع ذاته في كفة الميزان ويضع الحقيقة التاريخية
في كفة اخرى فيختل توازن التجربة بشكل مضحك ولا يستطيع ان
يمسك زمام نفسه في اطلاق الاحكام على عاداته .

يا امرأة الرقص بلا يقين .

يا امرأة القبول .

يا امرأة الضوضاء والذهول .

وتعشقين الجثث الصفراء والضحايا .

وناكلين الطين والدموع .

ايتها المهتمة الفاضمة القشور يا دمشق .

يا حب ، لا ... عفوك يا دمشق .

لولاك ، لم أهبط الى الاغوار

لم أهدم الاسوار .

وكان في هبوط الشاعر الى الاغوار وهدم الاسوار ، أيا كانت
هذه الاغوار والاسوار ، عزاء عن المأساة كما يتصورها عقل مولع باطلاق
الاحكام ، ولكن اذا كان الزيف هو الطابع العام لمعظم اعمال ادونيس
الشعرية ، فقد نجت منه قصيدته الكبيرة ((تحولات العاشق)) التي
ينفذها من الترددي في هوة المطلق والميتافيزيقيا نسيج واقعي حار يتخللها
ويعطيها رائحة الصدق وطمحه رغم انها نطل مرهقة نتيجة لمحاولة
الشاعر المستمرة في ان يضيف من الخارج معاني مطلقة على صميم
التجربة ويلصقها بها لصقا .

أما خليل حاوي فقد انفرط بطريق خاص يتسم بالتواضع وبقلة
الادعاءات وهو لا يطلق صيحة البشرى الا بعد ان يوهنا بمورره بتجربة
سابقة ، كما في قصيدته الكبيرة ((السندباد في رحلته الثامنة)) ولكن
تجارب خليل حاوي لا تصمد للملاحظة المتفحصة ، ولا بد من هذه
الملاحظة لانه شاعر غنائي عظيم ، يستطيع ان يسرفنا من انفسنا ويهزنا
بصوته الحلو ، ولكن فاريء اشعاره لا بد ان يتسائل في النهاية
عما ترسب في نفسه من التجربة التسي تلقاها ، وحينئذ من الممكن
ملاحظة ان تجارب خليل حاوي محاولة تأملية بحنة يجثم عليها الصمت
وتفتقر الى الفعل وكان في اعماقه شيئا يمنعه من الافدام . ولذلك
فاننا نتعجب من اولئك اللذين يصفونه كشاعر وجودي وهو يقف في
طرف الصمت المعادي تماما للوجودية .

ان ابشار سندباد خليل حاوي في دنيا ذاته حتى بلوغه كنز المطلق
الذي يسميه بالفطرة وبشارته لا تخرج عن كونها موافق تأملية لا تتميز
بأي ابداع فكري ولا تتميز ايضا بأي خيوط تربط بينه وبين واقع
حياتنا وليس في حقيقته سوى صوت رومانسي محمل بحلم ميتافيزيقي.
وفي رأينا ان الشمول في اشعار هؤلاء الشعراء الميتافيزيقيين
وغيرهم لا يتعدى استخدام الالفاظ الدالة على الشمول في تجارب
ذات طابع ذهني مسطحة احادية الجانب في رؤيتها للعالم او التاريخ
فاذا تعرضت للواقع فانها بسطه على حساب تعقد الحقيقة .

أما صوفيتهم فلا تتبع من تجربة معاشه وانما تتبع من طموح

جشع متناقض .

شعراء الرفض الوجودي :

مثل قصيدة « حبل » او كما في قصيدة « رسالة الى سيدة حافدة » او قصيدة « أوعية الصديد » .

ولكنهم يتوقفون كما يتوقف نزار قباني عند حدود الوصف الخارجي لتمسحه بمديد طاقاتهم في صنع جماليات شكلية دون محاولة الفوص في اعماق التجربة او النفاذ الى سر المأساة فهم يكتفون بمستوى الريبورتاج الصحفي في تناولهم للمشكلة الاجتماعية ولا يحققون في تناولهم لها مستوى الشعر الجديد بهذا الاسم .

الشعراء المنتزمون الواقعيون :

ولدت الحركة الجديدة في شعرنا العربي الحديث في احضان حركات المقاومة ضد الاستعمار الجاثم على الارض العربية . منذ ما يقارب عشرين عاما ، فتركت قضايا تحرر الوطن سياسيا واجتماعيا على شعرنا اثر لا يخطئه النظر ومع انتصار نداءات التحرر في اجزاء الوطن المختلفة ومنذ ثورة ٢٢ يوليو ١٩٥٢ التي فتحت الباب لامال جديدة في مستقبل الانسان العربي ، وحتى الان وبعد ان تغيرت الصورة العامة واصبح الشعر الشامل حقيقة تدق الابواب وليس مجرد امل ، وبعد ان اتسعت الصورة ونفذت الى قلب واقعا تعقدت القرن العشرين وامله ومخاوفه ، ما يزال شعراؤنا الواقعيون في المقدمة يحملون رسالة الدفاع عن حرية الانسان العربي واحلامه .

صلاح عبد الصبور في « الناس في بلادي » وعبد الرحمن الشرفاوي ومعين بسيسو والفيتوري وجيلي عبد الرحمن ومحيي الدين فارس وناج السر الحسن وشوقي بغدادى . هؤلاء هم بعض من صنعوا البداية وكان في مقدمتهم عبد الوهاب البياني ، وكان التزامهم بقضايا الوطن القومية والسياسية الصادر من احساسهم الثوري العميق بالمسؤولية ، وقت ان كان الصراع من اجل نصرة هذه القضايا - يعني التشريد او النفي او هو كان يعني ببساطة ان تتحمل حياتهم عبء مسؤولية الكلمة الشريفة . والحق ان شعرهم لم يخلص في اول الامر من كثير من انفجاجة والدخوات السياسية المباشرة وروح الخطابة والسطحية ، ولكننا لا ننكر ان اشد افكارهم واحاسيسهم عريا وخشونة انما كانت تطرح لاول مرة في تاريخنا في ذلك الوقت ، حاملة بشرى عالم جديد - منذ عشرين سنة - مما جعل لها قوة تأثير غير عادية منذ البداية ، وكذلك يجب ان نتذكر ان عملية التحرر الحقيقي الدافعة الى خلق الاشكال الجديدة في شعرنا واسبابها النفوذ المعاصر انما ارتبطت بثورية هذا التيار ، واستناده فيما وراءه الى اعظم تقاليدنا الشعرية الموروثية ، ونزوعه الى الامام في الوقت نفسه الى ابعد ما يمكن ان تؤدي اليه الحرية .

وقد اخذت عظمة هذا التيار تتأكد خلال صعوبات الواقع مما دفع بالشعراء الواقعيين الذين صمدوا في وفقتهم بجانب الانسان الى توسيع دائرة الواقعية حتى لنهاها شيئا فشيئا تشمل بجانب تجارب الواقع الواضحة تجربة الحلم والواقع الصعب الادراك ، ومستويات الشعور المتباينة تباينا لا نهائيا .

فتعددت الاساليب الواقعية وراينا شعراءنا هؤلاء يلجأون الى الرمز والتجريد والى الوسائل المتباينة الحديثة مثل تسليط ضوء مفاجيء على الشيء العادي من اجل الكشف عن غوايته ، ورايناهم يعيدون النظر في تقاليدنا الشعرية الموروثية ، للربط بينها وبين الحاضر ولتأكيد قيمته .

ولا ندعي بعد ذلك انهم قد انتهوا من حل مشاكل الشعر العربي الحديث او من اكتشاف وسائل الصياغة القادرة على النفاذ الى الوجدان الحديث المستهلك من اثر كل ما تلقى به فيه اجهزة الدعاية الحديثة ، السينما والصحافة والراديو والتلفزيون ، وهم كذلك لم ينتهوا الى ايجاد التعبير المنصف بشمول الدلالة على الانسان الحديث .

اذا كان الشعراء المينافيزيون قد حاولوا ان يجدوا تفسيراً لظاهر الحياة الانسانية من خلال ابيتهم الفنية القائمة على اساس من المطلق او المعجزة او التجربة الصوفية فان هناك شعراء آخرين انطلقوا في نفس الاتجاه وان كانت بداياتهم مختلفة تماما - فقد انطلق هؤلاء الشعراء من فكرة استحالة العثور على تفسير لظواهر الحياة الانسانية المعاصرة ، ولا يمكن لشاعر ينطلق من هذه البداية الا ان يعتمد الشيء الوحيد المؤكد لديه وهو تجربته الذاتية . ولما كان التفسير الخارجي لهذه التجربة غير محل ثقة منه فانه يؤمن بان قدرته تنحصر في مجرد تقديم تجربته الذاتية دون تفسير . ولما كانت هي الشيء الوحيد اليقيني المتبقي لديه فاننا نلاحظ على شعراء هذا الاتجاه ميلا شديدا متزايدا نحو الذاتية والفموض ، الفموض الذي لا يعتبر عنصرا طارئا على التجربة الشعرية من الخارج وانما يظهر احسد مكوناتها طبعا للظرة التي تنقي العقل من الواقع وتهزأ به ككامل قادر على تفسيره .

ومن الطبيعي بالنسبة لشعراء هذا الاتجاه الذين سميناهم بشعراء الرفض الوجودي ان تتعدد مواقفهم تجاه الواقع ، بتعدد العنصر الاساسي الحاسم في تجاربهم الذاتية التي يحتوي كل منها على ضيق عام يتمثل فيه الاحساس السائد لدى الشاعر . وقد يكون هو الاحساس بعث الحياة والامعقوليتها او الاحساس بكارثة عقلية او الاحساس بالجنس كطاقة عمياء تولد الاشكال المشوهة للسلوك الانساني ، او الاحساس بالفتيان تجاه الاخر ، ولا شك ان نثر شعراء هذا الاتجاه بالتجربة الاوروبية المعاصرة في الشعر وخاصة الجوانب المتعققة منها بالاتجاه المسيحي المشائم والاتجاه العبي والانتجاش الفرويدى والسرياني كان عاملا حاسما في دفعهم الى هذا الاتجاه . خاصة اذا لاحظنا انهم غالبا ما يتميزون بفقدانهم الاتجاه الاجتماعي وأوضح مثل على ذلك شعراء النثر مثل : توفيق صايغ وجبرا ابراهيم واخرين ما يزانون مترددين بين تجارب الرفض والوجودي وبين الخنين الى تحقيق ارتباط فعال بينهم وبين الواقع مثل كمال عامر . ولعل المهمة الاساسية للنقد العربي تجاه هذا الاتجاه ليست الاستطراد في مناقشات غير منتجة لمزاعمهم الغربية الرضية وانما تحديد المكان الذي يوجهون منه مجتمعا الانساني بمشاكله العديدة .

شعراء ابعن للفن :

ولعله من المفيد ايضا ان نشير الى اتجاه شعراء الفن للفن قبل الدخول في التحليلات الاخيرة للشعراء الملتزمين او شعراء النصار الثوري في ادبنا العربي الحديث رغم ان اتجاه الفن للفن الذي يعكس لامبالاة الشعراء بالنسبة للواقع الاجتماعي ، قد اخذ في الذبول نتيجة لفقدته انصاره يوما بعد يوم ، بسبب عزله الاجتماعية وذاتيته المفرطة وضيق افقه ولم يبق من المعبرين عن هذا الاتجاه الذي لا يجروا اصحابه على رفض الواقع صراحة ، وانما يرفضون باسم الفن السامي والخالد والتبجيل والرفيع . لم يبق من شعراء هذا الاتجاه الا قلة من التقليديين الذين يستعمرون موضوعاتهم وصور الجمال في اشعارهم وموسيقاهم من قصائد السلف

مثل عزيز اباطة وصالح جودت اللذين لم يطرقا من ابواب الابداع سوى باب التجويد ، فيما ابداعا حسا ولا صورة ولا فكرا ولا رؤية ولا تجربة ، وهناك آخرون تحرروا من الرؤية القديمة مثل محمود حسن اسماعيل او من الرؤية والشكل التقليديين مثل نزار قباني ، ولكنهم ظلوا جميعا معبرين باشعارهم . باستثناء قصائد المناسبات ، عن حلم فني مجرد في الظاهر وعن عزلة انسانه في حقيقة الامر . وقد يتعرض هؤلاء الشعراء لمشاكل اجتماعية احيانا كما يتعرض نزار قباني مثلا لمشاكل المرأة في علاقتها بالرجل في مجتمعنا العربي

خاصة ، وتاريخهم ينطلق من حلم انساني قديم وجد مدافعين اقوياء عنه في جماعة ابولو ومدرسة المهجر ، ولئنهم الان لا يستطيعون ببساطة معايشة هذا الحلم والامل في اعادة الانسجام بين الانسان والطبيعه او رجع راية المحبة دسورا للبشر او الفرار الى عالم اللاهوت خوفا من التلوث بادران الحياة .

ان الرومانسيين الجدد يتقنون الحلم الرومانسي القديم ويلفون الحياة التي يبخل على الانسان حتى بمجرد الحلم ، وهم يتميزون عن سابقيهم في اشعارهم ، كما تراها في فصائد بلند الحيدري ونازك الملانكة وملك عبد العزيز واحمد حجازي ومحمد ابراهيم ابو سنة على سبيل المثال ، بانهم نموذج بطريقة اكثر فعالية بين الواقع والذات بما يجعل من معطيات الواقع مفسرا لاحزان ذاتية تتكلم بها عادة ، فاذا كانوا كالرومانسيين اسابقيين في ميلهم الى النعيم والى تحمیل العالم - بطريقة عشوائية - مسؤولة امراضهم واحزانهم وجنوحهم الى الفرار من الواقع كلما اصطدم بهم بدلا من محاوله الكشف عنه وبشكل عام اذا كان تلقيهم للعالم تلقيا عاطفيا محضا مما يملأ فصائدهم بحرارة الانفعال ويجعل للفكر فيها دورا نالوتيا الا انهم يمثلون فسي واقعا صونا اصيلا ويجسدون رغبة الانسان في تخطي ذاته وقدره ويعرفون جيدا كيف يلمسون ادق الاحاسيس الانسانية ، وغالبا ما يظهر الواقع الاجتماعي في اعمالهم في خلفية الصورة فيجعلها اكثر اذنا ، فاذا اضفنا الى ذلك تفوق الروح الفناية عندهم وارتباطها بتقاليدنا الشعرية الموروثة واهتمامهم الخاص بالجانب الجمالي في فصائدهم فاننا لا نبالغ اذا قلنا بانهم بما قدموه لشعرنا العربي الحديث من اعمال قد قدموا عزا فرديا للانسان المعاصر هو احوج ما يكون اليه ليساعده على تحمل سبء الحياة .

استعراض

اذا كانت التحديدات السابقة ضرورية لتقديم الصورة العامة لشعرنا الحديث فان فائدتها تقف عند هذا الحد العام الذي توخينا فيه التمثيل لا الحصر وهي لا يمكن ان تكون فاطعة ولا يمكن ان تكون نهائية ، والا كانت متعارضة مع طبيعة الظاهرة التي نعالجها مع طبيعة الحياة نفسها التي تقوم على اساس الحركة المستمرة ، وشعراؤنا فادرون على تغيير الخريطة دائما ما داموا كبشر فادرين على تقديم الجديد .

وهناك اتجاهات ثورية لها ظروفها الخاصة لا يمكن معالجتها في سياق الموضوع وانما تتطلب افراد بحث مستقل لها مثل اتجاه الشعر العامي العربي واتجاه شعراء الجزائر ، ونرجو ان نجد من يهتم بتحليلها ومناقشتها من اجل توسيع افق التجربة الشعرية العربية .

شوقي خميس

القاهرة

ولا نظن ان لاي من هذه الصعوبات نهاية ، سواء تعلقت بالموقف الانساني او الادراك او اساليب التعبير ولكن هؤلاء السائرين في أصعب الدروب . الشجعان في مواجهتهم لمتطلبات حاضرهم المعقدة ، الباحثين عن ينبوع الحياة الدائمة في ترأنا التسعي وفي الترات الانساني وفي تقاليدنا العظيمة وفي حياتنا اليومية ، وفي اغتراب الانسان عن حقيقته وفي اغترابه عن عالم متفوق عليه وفي تضاله من اجل الادراك المتزايد وفي حلمه بحياة افضل - هؤلاء الشعراء الذين ابدعوا لنا شعرا عظيما فادرون على حماية مستقبل الشعر .

الانسانيون :

واذا كان الشعراء الواقعيون قد اهتموا بالدرجة الاولى بمشكلة اغتراب الانسان عن العالم الحديث المحيط به فان هناك شعراء آخرين وقفوا ايضا بجانب الانسان وابصروا مستوى اخر لاغترابه الا وهو اغترابه عن ذاته ، فما معنى ذلك ؟ .

اجاب على ذلك السؤال شعراؤنا الانسانيون الذين خرجوا من احضان الطبيعة وما زالت راحة الارض عاقلة بحيانهم وكلماتهم وما زالت اساطير الريف واغانيه تتردد في فصائدهم ، لقد فصرت وسائل المواصلات الجوية المسافة بين القرية والمدن وكان عليهم ان يلتقوا يوما بالانسان هناك . الانسان الذي يستهلك طاقاته النضال اليومي من اجل الخبز والمطالب في الوقت نفسه بالاف الاشياء الصغيرة النافعة والمدفوع به تحت ضغوط التنظيمات الاقتصادية والسياسية باسم الوطن والحرية والعدل وهو لا يكاد يعي من امره شيئا . وكان ما اتار هؤلاء الشعراء ، ليس مجرد الاستقلال السياسي والاقتصادي للانسان وانما توفقه عن الفناء . . وهكذا سعى بدر شاكر السياب الى الكشف عن ينبوع البهجة والحيوية المظومة داخل الانسان تحت اغلفة الحدانة وشهد طريقه مستخدما الرموز التقليدية التي تحتويها الاساطير والقصص الشعبية ليكشف لنا عن مدى قدرة هذا الانسان على الاحساس المبدع والادراك النبيل ، ومع السياب وبعده دخل شعراء اخرون هذا الميدان ، منهم كامل ايوب الذي استطاع بداب الفلاح المصري وقدرته على الصبر ان يطوع لفة الشعر ويقربها من لفة الكلام المعاصر حتى لتكاد تحمل كلماته نبض الارض وخضرها .

لقد أحب هؤلاء الشعراء الانسان ودافعوا عنه ووقفوا بجانبه بطريقتهم الخاصة مؤمنين بانه من الممكن ان يعود الى الفناء وان يمارس ذاته في اروع درجات التحقيق يشهد بذلك تراثه وماضيه ، بل والطبيعة المحيطة به .

ان السياب وكامل ايوب وشعراءنا الانسانيين الواقعيين يدعوننا الى اعادة النظر بداخلنا وحولنا ويعطوننا مثلا رائعا .

الرومانسيون الجدد :

وهؤلاء ايضا شعراء ثوار حقيقيون وان كانت ثورتهم ذات ملامح

صدر حديثا :

حتى نقهر الموت

تأليف صلاح عبد الصبور

منشورات دار الطليعة للطباعة والنشر ص.ب: ١٨١٣ بيروت